الفصل الخامس

الرؤى المختلفة للموقف السوفييتى

فى دراسة أعدها مسئول سوفييتى كبير – رفض أن يذكر اسمه – أن عبد الناصر قد أخطأ فى اعتقاده بأن الاتفاق بين الدولتين العظميين عشية حرب ١٩٦٧ بممارسة الضغط على العرب والإسرائيليين لعدم حدوث احتكاك بين القوات العسكرية للفريقين – يرى هذا المسئول السوفييتى خطأ عبد الناصر الذى ظن أن هناك وقتاً للمناورات الدبلوماسية ، وأن عبد الناصر كان ضحية أجهزة دعايته ، وأنه لم يرد أن يصدق أن فى استطاعة قطعة الشطرنج – أى إسرائيل – أن تتصرف من تلقاء نفسها . كذلك ارتكب عبد الناصر خطأ كبيراً حيث لم يضع المطارات المصرية فى حالة التأهب القصوى .

ومن هنا – وطبقاً لما تراه هذه الدراسة – فقد استطاع الإسرائيليون أن يخدعوا عبد الناصر وببراعة فائقة ، حيث اعتقد عبد الناصر أن القتال لن ينشب ، وخاصة بعد أن أطاع مشورة السوفييت فى قيام أحد المقربين إليه وهو زكريا محيى الدين بزيارة واشنطن . وكان الإسرائيليون فى الحقيقة قد قرروا

الهجوم ومواجهة العالم بانتصارهم العسكرى كأمر واقع .

وعقب تدمير ثلثى السلاح الجوى المصرى وهو جاثم على الأرض جرت محادثات بين عبد الناصر والسفير السوفييتى فى القاهرة ، وكذلك فى موسكو بين السفير المصرى والمسئولين السوفييت ، الذين لم يريدوا قط استفزاز واشنطن . وأيقن عبد الناصر بأن السوفييت يتخلون عنه عند الضيق ، وتوتر الحوار بينه وبينهم ، وأوضح القادة السوفييت لعبد الناصر أنهم لن يساعدوه ضد إسرائيل ، إنما هم يلزمون أنفسهم بتأييده فقط ضد أى عمل أمريكى .

وتستطرد هذه الدراسة السوفيتيية قائلة إن عبد الناصر قد أساء التقدير حينما اعتقد – خطأ – أن باستطاعته تحمل الضربة الأولى من الإسرائيليين وأنه أخطأ مرة ثانية حين شن هجومه المضاد الذى منى بالفشل .

وهكذا فإن الصورة السوفيتية السلبية قد ازدادت ليس لدى عبد الناصر وهو يواصل كفاحه المرير فحسب ، بل إن السوفييت قد أساءوا إلى سمعتهم أيضاً فى دول العالم الثالث والصين ، حيث تقاعس السوفييت عن القيام بأية مغامرة محسوبة أو عمل محدد ، أو تحد حكيم معقول يعيد لهم صورتهم الإيجابية فى العالم العربى ودول العالم الثالث والصين . وهذه الأخيرة رفضت قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ واعتبرت كل المبادرات المختلفة لتنفيذه تواطؤاً سوفيتيًّا أمريكيًّا وأن روسيا بصفة خاصة قد خانت مصالح العرب وتخلت عنهم عندما صوتت إلى جانب القرار ٢٤٢ . وعموماً فإن الرؤى الصينية للقضية الفلسطينية وحلها قد نبعت من طبيعة العلاقات القائمة بين أطراف النزاع فى منطقة الشرق الأوسط ولمصالح الصين الشعبية التى تأمل تحقيقها فى المنطقة .

أما الهند فقد أدانت إسرائيل لطردها الفلسطينيين من ديارهم ، وكانت الهند مدركة لأهمية علاقاتها الاقتصادية مع الوطن العربى فى صور إمدادات البترول ، وتبادل السلع والخدمات ، وانتقال العمال ورءوس الأموال ، غير أن الموقف الهندى قد تغير بالتصريح الذى أدلت به أنديرا غاندى – رئيسة وزراء الهند آنئذ – حيث قالت : «إننا أصدقاء إسرائيل ، ونحن نتعاطف مع مايقاسيه الإسرائيليون من آلام ولكن يجب ألانسى فى الوقت نفسه بعض المشاكل التى أثارتها إسرائيل» .

ومع ذلك فقد وقفت الهند فى الأمم المتحدة والمؤتمرات الدولية تؤيد وجهة النظر العربية ، وتندد بعدوان إسرائيل على الدول العربية عام ١٩٦٧ ، وطالبت الهند بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ بحيث يتم انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى العربية المحتلة بعد يونيو ١٩٦٧ .

وفيما يتعلق بحقوق الشعب الفلسطينى أعربت الهند عن تأييدها لحقوقه ، وأن تسوية الأوضاع سلمياً فى غرب آسيا – على حد التعبير الهندى بتسمية مشكلة الشرق الأوسط بمشكلة غرب آسيا – يجب أن تأخذ فى الحسبان بقرارات الأمم المتحدة الخاصة باللاجئين الفلسطينيين .

وعلى صعيد الشعب الفلسطينى وموقف السوفييت فإن السوفييت قد استمروا قادرين على التأثير فى المنظمات الفلسطينية بمختلف ميولها واتجاهاتها ، بالرغم من المواقف السلبية ، والتحفظات ، والتجاهل المتعمد من قبل السوفييت لنشاطات الفدائيين الفلسطينيين ، إن السوفيت لم يوافقوا الفلسطينيين على ما أسموه بالحرب الشعبية .

وكان رد الشقيرى عقب صدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ هو رفض منظمة التحرير الفلسطينية للقرار «جملة وتفصيلا» وفى حديثه إلى مجلة الحوادث ذكر الشقيرى أن المنظمة قد انتقلت من الجبهة الرسمية إلى جبهة العمل الشعبى ، بعيداً عن ارتباطات الحكومات العربية ، وقال الشقيرى «إن المشكلة بالنسبة للمنظمة هى أنها بلا أرض ، وبلا سلطة ، وبلا ولاء حقيقى أو دور فعال .. وأننا فشلنا حتى الآن من البندقية ، إلى الهوية ، إلى الإقامة» .

وعموماً فإن الاتحادات والتنظيمات المرتبطة بمنظمة التحرير الفلسطينية قد اقتصر دورها بعد كارثة ١٩٦٧ على إصدار البيانات فى المناسبات المختلفة . كذلك فقد رفضت منظمة فتح فى بيان لها قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، ورفضته أيضاً الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التى أدانت منظمة التحرير الفلسطينية ولجنتها التنفيذية وطالبت بتنحية السيد/ أحمد الشقيرى عن رئاسة المنظمة ، واتهمت الجبهة الشعبية منظمة التحرير الفلسطينية بأنها تحولت إلى مؤسسة تسيطر عليها الدكتاتورية الفردية ، والارتجال ، والدجل السياسى ، والاستخفاف بالجماهير والتسلط الفردى .

وأخذت الحملة المعارضة للشقيرى تتصاعد فى هجومها عليه من جانب كل القوى الفلسطينية ، وأعربت هذه الاتجاهات – وخاصة فتح – فى مذكرة وجهتها إلى مؤتمر وزراء الخارجية العرب عن قلقها للتصريحات المضللة التى يدلى بها السيد أحمد الشقيرى موهماً الرأى العام العربى والعالمى أن منظمة التحرير تقوم بواجبها الوطنى فى الأرض المحتلة ، وطلبت فتح اتخاذ الإجراءات الكفيلة بسد أبواب أجهزة الإعلام العربية فى وجه السيد الشقيرى ، حتى لايتخذ منها وسيلة لخدمة أغراضه الشخصية فى تضليل الجماهير .

وقد ظل الغموض يكتنف وضع منظمة التحرير الفلسطينية إلى أن رفع سبعة من أعضاء اللجنة التنفيذية للمنظمة فى ١٤ ديسمبر ١٩٦٧ مذكرة لرئيس المنظمة يطلبون فيها منه تنحية الشقيرى عن الرئاسة لقلق الشعب العربى الفلسطينى على منظمته ، وعدم ارتياحه للأساليب التى سار بها رئيس المنظمة ، وقد وقع على هذه المذكرة كل من عبد الخالق يغمور ، وبهجت أبو غربية ، وأسامة النقيب ويحيى حمودة ، ووجيه المدنى ، ونمر المصرى ، ويوسف عبد الرحيم ، ثم أخذت فئات الرأى العام الفلسطينى المختلفة تطالب هى الأخرى بإقالة الشقيرى ، مما اضطره إلى الاستقالة وتقديمه كتاب استقالته فى ٢٤ ديسمبر إلى السيد عبد الخالق حسونة ، الأمين العام للجامعة العربية آنئذ .

وفى ٢٥ ديسمبر ١٩٦٧ أصدرت القيادة الجديدة للمنظمة بياناً أذاعت فيه تصوراتها لمهمة اللجنة التنفيذية الجديدة فى المرحلة الجديدة ، بتطوير أجهزة المنظمة ، وتحقيق الوحدة الوطنية ، بين مختلف الاتجاهات والميول للمنظمات . أما المجلس الوطنى الفلسطينى – وهو بمثابة برلمان فى المنفى – فقد حالت كارثة ١٩٦٧ ونتائجها دون انصراف المنظمة للتحضير للمجلس المفروض فيه أنه مجلس انتقالى وقد استمر الوضع على ماهو عليه . وأدى ذلك إلى استمرار الصراع داخل المنظمة ، وانعكس ذلك بالطبع على جيش التحرير الفلسطينى نفسه ، الذى وقع فريسة للخلافات السائدة داخل المنظمة .

أما الاتحادات العربية التى أدانت العدوان الإسرائيلى على الدول العربية عام ١٩٦٧ فهى : الاتحاد الدولى لنقابات العمال العرب ، واتحاد المحامين العرب ، واتحاد المهندسين العرب ، كما تجدر الإشارة إلى ما قامت به الهيئة العربية العليا لفلسطين التى وجه رئيسها الحاج أمين الحسينى نداء إلى علماء

المسلمين ، كما رفع مذكرة إلى الملوك والرؤساء العرب يناشدهم فيها جمع كلمة الأمة العربية وتوحيد جهودها وإن الضربة القاصمة التى وجهتها القوات الإسرائيلية وفى طليعتها قوة الطيران الإسرائيلية أظهرت عجز القيادات العربية ومخابراتها وتقصيرها .

هناك أيضاً مؤتمر الكنائس المسيحية ممثلة فى كنائس الروم الأرثوذكس . والسريان الأرثوذكس ، والأرمن الأرثوذكس ، والكنائس الإنجيلية ، قد أعلنت جميعها تأييدها لحقوق الشعب الفلسطينى ، وإن موقف الكنائس المسيحية الثابت هو إدانتها للعدوان على أراضى الغير وإنه يجب عدم استعمال العنف لتسوية الخلافات الدولية . وقد أذاعت الكنائس الإنجيلية فى العالم العربى بياناً أعلنت فيه أسفها تجاه مايصدره بعض رجال الدين فى الغرب من تصاريح لصالح إسرائيل وأعادت الكنائس الإنجيلية فى العالم العربى إلى الأذهان أن الرجوع إلى الإنجيل وإلى التوراة نفسها وإلى سائر النصوص المسيحية سيثبت بوضوح أن عبارة أرض فلسطين هى أرض الميعاد لليهود ، إنما هو قول مردود نصًّا فى الكتاب المقدس ، وأن القول به مخالفة صريحة للنصوص والمفاهيم الدينية ،... وذكرت هذه الكنائس أن جميع هذه التصاريح منافية للدين وللمبادئ الإنسانية .

كذلك فقد أبدت الدول الإسلامية تعاطفها الملحوظ إزاء القضايا العربية حينما عقد مؤتمر العالم الإسلامى فى اجتماع طارئ ترأسه الحاج أمين الحسينى الذى ألقى خطاباً تحدث فيه عن النكبة العظمى ، وناشد الضمير العالمى والأمم المتحدة أن يعملا على تحقيق العدل . كما أن المجتهد الأكبر الإمام السيد محسن الحكيم المرجع الأعلى للإمامية الاثنى عشرية بعث ببرقية إلى المؤتمر ، ودعا

حكام العالم الإسلامى إلى اتخاذ موقف إسلامى صارم ، يتمثل فيه إنقاذ القدس ، وقد اختتم هذا المؤتمر أعماله ببيان جاء فيه أن المؤتمر لاحظ أن المسئول عن هذا العدوان لم يكن اختلاف وجهة النظر بين الطرفين المتنازعين من عرب ويهود ، إنما المسئول هو الأمم المتحدة نفسها منذ أن أصدرت قرار التقسيم فى أواخر عام ١٩٤٧ متصرفة بفلسطين تصرف المالكين .

وقد وافقت الدول الإسلامية على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وأيدت تطبيقه وفقاً لوجهة النظر العربية ، وأكدت ضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى العربية المحتلة ، وعارضت الدول الإسلامية أيضاً أى أمر واقع ينطوى على ضم مدينة القدس إلى إسرائيل .

وفيما يتعلق بحقوق الفلسطينيين فإن تركيا وإيران تحدثتا بهذا الخصوص ضمن إطار قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ وقد أكد شاه إيران على أن أية تسوية دائمة للنزاع فى الشرق الأوسط يجب أن تضع فى الاعتبار الحقوق المشروعة للشعوب العربية ، بما فيها شعب فلسطين ونفس الموقف أيده كل من ماليزيا ، وأندونيسيا ، وباكستان ، التى أكدت أن مصدر مشكلة الشرق الأوسط هو إنكار العدالة والحقوق الأساسية لعرب فلسطين ، وبالمثل فعلت مالى وموريتانيا والصومال .

كذلك عقد فى هذه الفترة أيضاً مؤتمر إسلامى مسيحى ، وقد ألقى المطران ميخائيل عساف مطران طائفة الروم الكاثوليك كلمة فى المؤتمر باسم الطوائف المسيحية ، أعرب فيها عن تضامن الطوائف التى ينطق باسمها مع الطوائف الإسلامية فى السراء والضراء ، وفى العودة إلى أوطاننا المقدسة ، وأعلن المؤتمر أيضاً استنكار الإسلام والمسيحية لاحتلال إسرائيل للضفة الغربية ، وسائر

الأقاليم العربية ، ومحاولتها ضم القدس إليها . وطالب المؤتمر بسرعة تحرك الضمير العالمى بكل جدية وسرعة ، لمواجهة الأوضاع النفسية التى يعانيها اللاجئون الفلسطينيون وخصوصاً الجدد منهم .

ومن المؤتمرات التى شهدتها هذه الفترة لتأييد الشعب الفلسطينى والحقوق العربية مؤتمر القمة لمنظمة الوحدة الإفريقية ، الذى عقد فى كينشاسا فى سبتمبر ١٩٦٧ ، وأبدى المؤتمر قلقه إزاء الموقف الحرج الذى يسود فى بلد إفريقى هو مصر ، الذى تحتل قوة أجنبية جزءاً من أراضيه . وتجدر الإشارة إلى أن العلاقات بين منظمة الوحدة الأفريقية والشعب الفلسطينى كانت علاقة ضعيفة ، بسبب قوة العلاقات الإسرائيلية الإفريقية ، وترسخها فى المجالات المختلفة قبل عام ١٩٦٧ ، أما بعد العدوان فإن دول المنظمة توافق على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وأن منظمة الوحدة الإفريقية لاتحبذ أبداً نشاط بل بقاء المقاومة الفلسطينية المسلحة ، حيث تعنى المنظمة بصورة أساسية بالتعامل مع الدول .

أيضاً عقد عقب كارثة ١٩٦٧ مؤتمر منظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية ، الذى دعا إلى مساندة قضية الشعب العربى العادلة ماديًّا وسياسيًّا ومعنويًّا ، ودعم الشعب الفلسطينى فى نضاله العادل من أجل استرداد وطنه واستعادة حقوقه المشروعة .

ويجب التنويه كذلك بمؤتمر نصرة الشعوب العربية الذى عقد فى نيودلهى آنئذ وقد برزت فكرة عقد مؤتمرات نصرة الشعوب العربية لدى شخصيات هندية صديقة للعرب ، وفى مقدمتها كريشنامينون وزير الدفاع الهندى الأسبق ، وكانت هذه الشخصيات ترى أن وجهة النظر العربية غير معروفة جيداً

لدى الرأى العام العالمى ، وأنه يتعين على أصدقاء العرب وأنصارهم القيام بالمساعى الضرورية لإزالة مايحيط بوجهة النظر العربية من ضباب وغموض . وقد عقد المؤتمر الأول فى نيودلهى فيما بين ١١ – ١٤ نوفمبر ١٩٦٧ برئاسة كريشنامينون ، وكان المؤتمر متأثراً بشدة لصدمة الكارثة التى حاقت بالعرب ، ولم تكن هناك رؤية محددة لما يمكن أن يقدمه المؤتمر ، لكنه أقر قرارات هامة لنصرة الشعوب العربية ، وكان من أهمها إيفاد مبعوث للقيام بمهمة تحقيق وفحص مركز الأقلية فى المناطق الخاضعة للاحتلال الإسرائيلى ، مع دراسة التدابير المتخذة لتيسير عودة النازحين منهم نتيجة للعمليات الحربية ، ووسائل معاملة أسرى الحرب وحماية المدنيين ، وقام المبعوث الدولى بزيارة المناطق المحتلة ، غير أن إسرائيل فرضت قيوداً على حرية تحركاته ، وربطت بين هذه المهمة وبين التحقيق فى أحوال اليهود فى البلاد العربية أطراف النزاع .

وهكذا أصمت إسرائيل أذنيها تماماً عن صوت الضمير العالمى ، ممثلا فى المؤتمرات السابقة التى عقدت كلها قبل أن يطوى عام ١٩٦٧ صفحاته ، حيث خاطبت هذه المؤتمرات المجتمع الدولى كله مطالبة بتطبيق الشرعية الدولية لحل الأزمة ، وترك الباب مفتوحاً أمام محاولات التوصل إلى تسوية ، غير أن إسرائيل قد استمرت على تشددها وصلفها ، وتسببت فى خلق مناخ كان من المحتم معه الاحتكام لمنطق القوة من الجانب العربى بعد ذلك بسنوات للحصول على الحقوق العربية المشروعة .

أما السوفييت فقد استمروا فى موقفهم السلبى تجاه العرب وجاء هذا الموقف ليقنع الزعيم المصرى أكثر وأكثر بتخلى السوفييت عن العرب والفلسطينيين على السواء ، وفى وقت الضيق والشدة . ويبدو أن السوفييت قد رأوا فى هزيمة

العرب وإذلالهم فرصة لتعزيز نفوذهم أكثر وأكثر فى العالم العربى ، وهو ماجعل مسئولا سوفيتيًا كبيراً – رفض أن يذكر اسمه – يعلن فى دراسة له أن الهيبة السوفيتية قد أصيبت بنكسة كبيرة على الصعيد العربى ، وأن العرب قد توهموا خطأ أن الدولة الكبرى الأخرى وهى الاتحاد السوفييتى – سوف تساعدهم وتخرج بهم من الكارثة التى حاقت بهم . . وقد أخطأ العرب فى هذا المفهوم .

وسوف نسوق عدة آراء لتوضيح هذا المفهوم وهذه الآراء هى محصلة أفكار أشخاص درسوا مشكلات الشرق الأوسط عن كثب ، وتأتى أهميتها من أنها جاءت عقب كارثة ١٩٦٧ مباشرة ، وكذا من اعترافهم جميعاً بأن العرب قد أسيء فهمهم من جانب الغرب لفترة طويلة ، وأن العرب لم يكونوا مفهومين من الرأى العام الغربى فهماً موضوعيًا ، والرأى العام الغربى – وهذا عامل مهم – لم يكن مفهوماً أيضاً من جانب العرب .

إن هذه الآراء – والتى تدور أيضاً – حول تفسير وتعليل الموقف السوفييتى من القضية الفلسطينية – تحلل المشكلة ، وتشخص المرض ، ثم تصف له العلاج . وليس بالضرورة أن تتفق هذه الآراء وآراء المتطرفين من القادة العرب بعد عام ١٩٦٧ ، غير أنه من المؤكد أن هؤلاء المتطرفين لو تركوا الجماهير العربية وشأنها لاستطاع الرأى العام العربى أن يتغلب على مايواجهه من مشكلات ، ولتمكن بسلام من إيجاد الحلول للقضية الفلسطينية وللصراع العربى الإسرائيلى .

فالمؤرخ البريطانى الذائع الصيت «آرنولد توينبى» الذى وضع مؤلفات علمية من بينها : دراسة فى التاريخ (١٢ مجلدا) يرى أن وجود دولة إسرائيل

والشعب الإسرائيلي حقيقة واقعة . ويبدو أنه لايمكن القضاء على هذه الحقيقة ، وأنه إذا أمكن القضاء عليها فإن ذلك سيخلق حشداً جديداً من اللاجئين – هم اللاجئون الإسرائيليون هذه المرة – ومع ذلك فإن توينبي يرى وجود عقبتين تعترضان سبيل حل النزاع العربي الإسرائيلي الأولى هي عدم استعداد العرب لتقبل حقيقة صعبة هي أن إنشاء دولة إسرائيل داخل الحدود التي ثبتتها خطوط الهدنة التي وقع عليها في سنة ١٩٤٨ بات أمراً واقعاً يترتب على العرب أن يعترفوا به ويقبلوه . والثانية هي محنة الفلسطينيين العرب القائمة . وهاتان عقبتان مترابطتان وإذا لم يتم تذليلها فإن الصراع سيستمر .

ويرى توينبي أنه لابد من إيجاد تسوية سلمية دائمة بين الدول العربية وإسرائيل وليس مجرد العودة إلى الهدنة ، ولكي تكون هذه التسوية السلمية دائمة يتحتم عدم فرضها بالقوة . ويجب أن تكون تسوية يرضى بها الطرفان المتحاربان عن قناعة لا أن تكون مجرد تسوية حبر على ورق ، وأن التسوية السلمية الناجمة عن قناعة تامة هي الطريق الوحيد لتحقيق التعايش بين العرب واليهود بشكل يعود على كليهما بالخير والازدهار .

وإن المحك لصدق إسرائيل هو أن توضح تماماً أنها لاتطالب بأية أرض وراء خطوط الهدنة لسنة ١٩٤٨ ، وهذا ينطوي بالطبع على الانسحاب من جميع الأراضي الواقعة وراء الخطوط ، والتي احتلت في سنة ١٩٦٧ . وأنه ينبغي على إسرائيل أن تتعاون تعاوناً فعالا في تعويض اللاجئين الفلسطينيين العرب ، وإعادة إسكانهم وكل لاجئ تعرض عليه العودة إلى داخل الحدود الإسرائيلية ويقبلها تكون خطوة تساعد على تحويل العداوة إلى صداقة . أما محك صدق نوايا العرب من وجهة نظر توينبي فهو أن يتعاونوا من جانبهم أيضاً في إعادة

إسكان اللاجئين ، وأن يتوقفوا عن استخدام اللاجئين كقطع شطرنج فى سياساتهم . وإنه لمن الطبيعى أن ينطوى إسكان اللاجئين بصورة دائمة على ناحية إنسانية هامة . هذا بالإضافة إلى أنه يعود بالخير العميم على اللاجئين أنفسهم .

ويرى توينبى أيضاً أن الجنس البشرى كله مهتم بالصراع ، ذلك لأنه مادام الصراع العربى الإسرائيلى قائماً فإنه قد يؤدى فى أية لحظة إلى اشتباك بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ، وقد يؤدى هذا بدوره إلى حرب عالمية ثالثة تستخدم فيها الأسلحة النووية ، ولذا لايمكن للعالم أن يقف مكتوف الأيدى أمام استمرار هذا الوضع المحلى القابل للانفجار . وأنه يجب أن يكون الشغل الشاغل الأول لدى العمل على إيجاد مصالحة هو الاهتمام برخاء الأفراد – العرب والاسرائيليين على السواء – وليس الاهتمام بقوة الدول كبيرة أو صغيرة ، ويجب أن يكون الهدف الأساسى للتسوية هو الحد من الآلام التى يعانيها الأفراد المعنيون من العرب والإسرائيليين على حد سواء . ولابد من تقديم التنازلات المتبادلة فى وقت واحد . وعلى العرب أن يعلنوا – شرط أن يعنوا مايعلنون – أنهم يعترفون بأن دولة إسرائيل وجدت لتبقى وأنهم يتخلون عن عزمهم السابق على تدميرها شريطة أن تتحقق العدالة للفلسطينيين العرب . وعلى الإسرائيليين فى الوقت ذاته أن يعترفوا بأنهم ارتكبوا ظلماً فادحاً بحق الفلسطينيين العرب ، وأن يعلنوا – ويصدقوا فيما يعلنون – أنهم سيحققون الآن العدالة للفلسطينيين العرب شريطة أن يعترف الفلسطينيون العرب والدول العربية جديًّا بوجود إسرائيل كحقيقة دائمة .

كذلك فإن مفتاح المصالحة العامة هو فى جعل العرب وبخاصة اللاجئين خارج إسرائيل والعرب الذين لايزالون داخل إسرائيل يقبلون عن قناعة بوجود

إسرائيل بين ظهرانيهم . ومن الأهمية بمكان إعادة أكبر عدد ممكن من اللاجئين العرب وإعادة إسكانهم ما أمكن ذلك فى منازلهم وممتلكاتهم . ويبدو أنه من غير المحتمل أن تقبل إسرائيل استعدادها لإعادة جميع اللاجئين ، حتى لو تأكدوا من أنهم لن يحاولوا القيام بدور طابور خامس ، ولذلك فلابد من أن يستوطن كثير من اللاجئين وربما أكثر منهم مكاناً آخر ، ويتساءل توينبى عما إذا كان فى الإمكان إقناع اللاجئين الفلسطينيين بقبول هذا الحل . وأن ذلك يتوقف على مدى إمكان توافر منازل لائقة ودائمة وإتاحة فرص جديدة لهم بدلا من مخيمات اللاجئين الحالية حيث لا أمل ولا مجال فيها لهم مستقبلا . ويرى توينبى أيضاً أن من المناطق المحتمل إعادة إسكان اللاجئين العرب فيها والذين يرغبون فى المحافظة على هويتهم كأسرة متماسكة ، ذلك الجزء من سوريا الواقع إلى الشمال الشرقى من نهر الفرات . فهذه الأرض الخصبة لاتزال قليلة السكان ، يعتمد جزء كبير منها على مياه الأمطار ، وأن قيام العراق وسوريا ببناء سد على نهر الفرات ليس لمنع الفيضانات فحسب ، بل لتتوافر كذلك المياه للرى ، وإنه من الأهمية بمكان أن يمنح اللاجئون العرب الفلسطينيون تسهيلات تعليمية من الدرجة الأولى ، وأن الفلسطينيين الذين نجحوا فى تلقى التعليم العالى قد أثبتوا على الرغم من أوضاعهم السيئة القائمة أن الشعب الفلسطينى شعب عريق ويتمتع بكفاءة عقلية جيدة ، وأن فى استطاعة دول العالم كلها الإسهام فى حل الصراع العربى – الإسرائيلى بفتح أبوابها أمام الفلسطينيين العرب ، الذين يبرهنون عن مقدرة وكفاءة ومنح الجنسيات لهم إن هم أرادوا ذلك ، وأن من الثابت أنهم يكونون بذلك مواطنين لهم قيمتهم ، وعلى الأخص بالنسبة إلى البلدان التى فى حاجة إلى مواطنين جدد ، كالبرازيل ، وفنزويلا ، وأستراليا ،

وكندا . وقبل هذه كلها الولايات المتحدة الأمريكية .

أما أنتونى ناتنج وزير الدولة الأسبق فى وزارة الخارجية البريطانية ومؤلف العديد من الكتب عن العرب يرى أن هناك دولة واحدة فى العالم تستطيع إقناع إسرائيل بتسوية هذه القضية ، وبقبول الشروط التى يعرضها العرب ، والتكفير عن الظلم الذى لحق بالشعب الفلسطينى ، هناك دولة واحدة تستطيع أن تفعل هذا ، هذه الدولة هى الولايات المتحدة الأمريكية ففى سنة ١٩٥٦ حين احتلت إسرائيل أرضاً فى أعقاب حرب السويس تقل فى مساحتها عن الأراضى التى احتلتها بعد عام ١٩٦٧ طلبت منها الولايات المتحدة الانسحاب ، وعارضت بريطانيا وفرنسا ذلك ، وكان هذا طبيعيًّا ، لأنهما اشتركتا فى الحملة إلى جانب إسرائيل وقالتا : «هذا الشعب لم يفهم على حقيقته ، وقد تعرض لظلم فظيع ، ويجب ألا يطلب إليه الانسحاب – يقصد الإسرائيليين – دون قيد أو شرط . ولكن الولايات المتحدة قالت : «انسحبوا ! ! » وانسحب الإسرائيليون .

واليوم يبدو أن مثل هذا الضغط الأمريكى غير متوافر ، وأن إسرائيل تستطيع الوقوف بثبات فى الأراضى التى تحتلها بفضل هذا الموقف السلبى الذى تتخذه واشنطن ، والذى يشجع إسرائيل على التوسع على حسابهم ، ومرة ثانية تتأكد شكوك العرب من أن إسرائيل إنما خلقت لتكون موقعاً غربيًّا يحقق السيطرة على العنصر الشرقى ، وأنها لاتزال تستعمل ذلك .

ويتساءل أنتونى ناتنج عما إذا كان يتجاوز الحدود إذاماطالب بأن تتغلب الحكمة على زعماء إسرائيل ، بحيث يمكن إعادة خلق دولة فلسطين ، ليس فقط جغرافيا ، بل سياسيًّا كدولة ثنائية متعددة الأجناس ؟ وهل يتجاوز الحدود إذا طالب إسرائيل أن تقول بصراحة وتعنى ماتقول أن للفلسطينى العربى الحقوق

ذاتها التى يتمتع بها الفلسطينى اليهودى من حيث العيش فى فلسطين ، والعمل فيها ، والمشاركة فى إدارة بلاده ، مع ضمان المصالح الأساسية لكل من الطائفتين والمحافظة عليها ؟ ويصل أنتونى ناتنج إلى نتيجة مفادها أنه إذا أراد اليهود أن يحققوا الطمأنينة والأمن فى الشرق الأوسط ، فإن عليهم أن يعيشوا مع العرب ، وأن يتركوا العرب يعيشون معهم ، وأن سياسة التفرقة العنصرية سواء مورست فى جنوب أفريقيا ضد السود أو فى إسرائيل ضد العرب فإنها مرفوضة من جميع العالم ، وهى فى النهاية غير عملية . وأن العالم العربى مستعدا استعداداً لم يعرفه فى الماضى – للقيام بدوره فى تسوية مع اسرائيل على أساس عادل ودائم .

أما تشارلز بوست الدبلوماسى الأمريكى والمساعد الأسبق للأمين العام للأمم المتحدة وعضو المجلس الأمريكى للعلاقات الخارجية فقد ذكر عقب حرب ١٩٦٧ مباشرة أن هذه الحرب قد نجمت من الخيبة العقيمة التى ألزمت بها شعوب المنطقة نفسها فى السنوات الماضية ، وأن الإسرائيليين الذين يشعرون أنهم محاصرون من كل جانب بجيران عرب يناصبونهم العداء ، وأنهم مازالوا يذكرون المصير الذى أحاق بملايين من يهود أوربا ، وأنهم يعتقدون أن أى تنازل ملموس منهم سيؤدى إلى إثارة أطماع العرب وإلى دفع إسرائيل إلى الفناء المحقق .

وينحى تشارلز بوست باللائمة على السوفييت ، ويرى أنه كانت لديهم بالطبع مبرراتهم فى ذلك فهم لايريدون أن يروا الحكومة السورية تسقط ، وأن الحكومات السورية المتطرفة للغاية والتى تعاقبت على الحكم طوال السنتين السابقتين على حرب ١٩٦٧ وإن تكن غير شيوعية قد ازدادت اعتماداً على

السوفييت فى الحصول على مساعدات عسكرية واقتصادية ، بحيث سمح ذلك بدخول أعداد كبيرة من المستشارين السوفييت إلى سوريا ، وقد هيأ هذا التربة والمناخ الملائمين للتغلغل والنفوذ السوفييتى فى الشرق الأوسط .

أما عن عبد الناصر فإن تشارلز بوست يرى أن الزعيم العربى قد شعر أنه يتحمل مسئولية القيادة العربية الموحدة التى يفترض فيها حماية جميع الدول العربية من إسرائيل . وأنه بسبب غيرته على مركزه المتدهور كزعيم مرتقب للعالم العربى ، وبعد أن سخر به حلفاؤه ومنافسوه على السواء لفشله فى التحرك عند الإغارة على قرية السموع الأردنية وعند وقوع حادث ٧ أبريل – يقصد هجوم الطيران الإسرائيلى على مطارات سوريا آنئذ – وبعد أن أكد السوفييت بصورة قاطعة أن إسرائيل على وشك أن تهاجم سوريا . فقد شعر عبد الناصر بعد هذا كله بأنه لم يعد فى استطاعته الوقوف بمعزل عن الأحداث إن أراد أن يحتفظ بسلطته وبكرامة المنصب الذى يتربع عليه .

ويعزى تشارلز بوست السبب فيما حدث عام ١٩٦٧ ، ليس إلى خطأ العرب وإسرائيل فحسب ، أو حتى خطأ الدول الكبرى ، أو الأمم المتحدة فى إجراءاتهم أو إهمالهم فى شهرى مايو ويونيو ١٩٦٧ ، ولكن معظم السبب يكمن فى إخفاقهم جميعاً ، ورفضهم الصريح مواجهة حقائق الحياة فى الشرق الأوسط . وأن السلام أو الأمن لن يخيما على سكان المنطقة أو على الدول الكبرى المتورطة فيها إلا بعد أن يعترف العرب بأن إسرائيل – مهما يبدو لهم الظلم الذى انطوى على إنشائها – بأنها إحدى حقائق الحياة ، وأن لإسرائيل من الحق فى الوجود بقدر ماللعرب منه ، وبأن تهديد إسرائيل ومضايقتها والحلم باحتمال القضاء عليها – كل هذه الأمور تشكل خطراً على أمن العرب بقدر ماتشكله على

أمن إسرائيل ، وأن على العرب أن يدركوا كذلك أنهم والإسرائيليين سيكسبون أكثر مما يخسرون نتيجة للتعايش السلمى بينهم ، ومن ناحية أخرى فإن السلام لايمكن إحلاله فى المنطقة إلا بعد أن يعترف الإسرائيليون بأن الشرط لبقائهم يعتمد كليًا وعلى المدى البعيد على المصالحة مع جيرانهم الذين يفوقونهم عدداً . وبأن بقاءهم لايمكن المحافظة عليه إلى ما لا نهاية بقوة السلاح أو بالتوسع الإقليمى ، وأن مظاهر الصلابة والغطرسة ليست وسائل فعالة فى التعامل الدولى . وبأنه لايمكن بشكل خاص أن تتمتع إسرائيل بالأمن إلا بعد تعويض اللاجئين الفلسطينيين وإعادة إسكانهم ، وإرجاع كرامتهم إليهم .

أما جون جلوب (جلوب باشا) رئيس أركان الجيش الأردنى (١٩٣٨ – ١٩٥٦) فيرى أن السوفييت قادوا عبد الناصر إلى طريق لم يعرف أين يؤدى به . وأن مصر قد أدركت فى النهاية أنها أصبحت مستعمرة روسية . ويقترح جلوب على الولايات المتحدة أن تمارس ضغطاً على إسرائيل ، لأن كل خطوة جديدة يخطوها الأمريكيون فى تأييد إسرائيل سيقابلها العرب بالتوجه نحو السوفييت الذين من مصلحتهم حدوث اضطرابات جديدة فى العالم العربى ، وأنه إذا تغلغل السوفييت فى الدول العربية فسنكون أمام لوحة شطرنج تنتشر عليها مختلف البلدان ، بحيث يكون بعضها فى الجانب الشرقى وبعضها الآخر فى الجانب الغربى ، ويؤكد جلوب أنه إذا نفضت الولايات المتحدة يدها فإنه لن يكون هناك خيار للعرب غير الاتجاه نحو السوفييت . وهذا يعنى حتماً انهيار أوروبا وانهيار حلف شمال الأطلنطى وبقاء الولايات المتحدة بلا حلفاء .

ويلاحظ ألبرت حورانى – السورى الأصل – مدير مركز الشرق الأوسط فى جامعة أكسفورد بإنجلترا ومؤلف العديد من الكتب القيمة عن الشرق الأوسط

وتاريخ العرب – يلاحظ حورانى أنه لاتوجد عداوة بين العرب واليهود كشعب ، ولكنه يقول إن مايرضى العرب هو وجوب تسوية قضيتى اللاجئين والحدود .

ويشدد جون بادو سفير الولايات المتحدة الأسبق لدى مصر والذى تولى مناصب أستاذ وعميد ورئيس الجامعة الأمريكية بالقاهرة طوال ١٧ سنة – يشدد بادو على مالعبته الصور الزائفة والمعلومات المشوهة وسوء التقدير من أدوار فى أعمال إسرائيل ومصر . وأن الكلمات عند العرب – وهم شعب عاطفى – لاتعنى بالضرورة عملا فى حين تترابط الكلمات والأعمال بصورة وثيقة عند الإسرائيليين ، غير أن أيًّا من الجانبين قد يتجاهل ذلك المفهوم قبل كارثة ١٩٦٧ التى حاقت بالجانبين : العربى والإسرائيلى على السواء .

ويعلق دان كورتس – الصحفى الأمريكى – و « والمربيرجر» أحد مؤسسى المجلس الأمريكى لليهودية فى سنة ١٩٤٣ . وهو معاد للصهيونية – وجان (لاكوتور) محاضر العلوم السياسية والصحفى المشهور – يعلق هؤلاء المراقبون على سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط بلهجة تتسم بالتشاؤم ، نظراً للصعوبة التى تواجهها الولايات المتحدة فى محاولاتها توخى عدم التحيز فى الصراع فى الشرق الأوسط ، ويدعو كورتس إلى إعادة النظر فى سياسة أمريكا فى المنطقة .

وعموماً فقد كانت هذه عينة من وجهات النظر المختلفة لعديد من المؤرخين والدبلوماسيين والمراقبين والساسة الغربيين ، عرضها أصحابها عقب كارثة ١٩٦٧ التى حاقت بالعرب والإسرائيليين على السواء . وجميع الآراء السابقة عبرت عن وجهات نظر أصحابها فى ضرورة إنهاء الصراع العربى الإسرائيلى

بإعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، وانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة .

غير أن الزعماء الإسرائيليين قد تجاهلوا الإنصات إلى هذه الأصوات وغيرها ، وكان لزاماً على العرب أن يكافحوا لاسترداد حقوقهم المغتصبة من خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، التي كانت بمثابة نقطة تحول حاسمة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي . ذلك لأن العرب قد مارسوا لأول مرة الفعل تجاه إسرائيل ، واتخذوا زمام المبادرة ، ولم يقتنعوا بممارسة ردود الفعل كما فعلوا قبل ذلك مرات عديدة ، وتعاملوا مع الإسرائيليين هذه المرة بنفس أساليبهم السابقة ، بل إنهم تفوقوا عليهم كما ألمح إلى ذلك مناحم بيجين نفسه .. وبعض السم ترياق لبعض ..

وعموماً فقد جاءت كارثة يونيو ١٩٦٧ لتعرض من جديد على المثقفين والمفكرين العرب مشكلة الوطن العربي ، وبدأ العقل العربي يعيد النظر في العديد من القضايا التي طرحتها من قبل نكبة عام ١٩٤٨ ، والهزيمة العسكرية عام ١٩٥٦ ، وكان طبيعياً أن يعايش الفكر العربي كارثة عام ١٩٦٧ ، التي تعرضت لها الأمة العربية باحثاً عن الأسباب ، وعما إذا كانت القوات المسلحة العربية ضحية من ضحايا الهزيمة أم سبباً من أسبابها . وقد أجاب الرئيس السادات فيما بعد على هذا التساؤل قائلا «إن الجيوش العربية كانت ضحية من ضحايا الهزيمة وليست أبداً سبباً لها» .

وبالرغم من الخلافات العديدة في الاتجاهات الفكرية والتيارات العقائدية ، فقد أسفرت كارثة عام ١٩٦٧ عن تبلور رؤية عربية للصراع ، تحددت في أن الأساس الذي افتقده العرب منذ عام ١٩٤٨ هو غياب

الاستراتيجية العربية ، التى تحدد لكل عنصر من عناصر القوة مدى استخدامه والوقت المناسب للعمل به ، كذلك فقد عجزت الدول العربية عن تحقيق تكامل نظامى كلى ، فالعرب عشية حروبهم السابقة مع إسرائيل (٤٨ – ٥٦ – ٦٧) كانوا يميلون إلى التفكير والتخطيط لتحقيق أهدافهم . إما عن طريق اتخاذ إجراء فى لحظة من لحظات الأزمة وإما أنهم يتركون للزمن أن يحقق الهدف نيابة عنهم ، متوهمين أن الزمن فى جانبهم ، بل إنه لم تكن هناك سوى استراتيجية عاجزة ، أو بالأحرى تنسيق غير محكم بين السياسات العربية . هذا إذا كان هناك بالفعل أى تنسيق . بعكس إسرائيل التى تحكمها استراتيجية شاملة .

كما أدرك المفكرون العرب ، على اختلاف انتماءاتهم وميولهم السياسية ، أن تفسير ألفاظ النكبة والنكسة والكارثة لا يرجع إلى قوة إسرائيل بقدر ما يرجع إلى القصور من جانب العرب ، وسواء أخذنا بالمنهج التحليلى الجدلى أو بالمنهج المثالى فإن كليهما يتفق على «أن الأسباب الداخلية هى العامل الأساسى فى تحليل أى حدث تاريخى ، ومن ثم فلا يمكن أن نفسر تطوراً تاريخياً طويلا كهذا ببساطة «بأن نرجع كل الأخطاء إلى دور الاستعمار» .

وعلى صعيد الاتحاد السوفييتى استمر السوفييت فى تراجعهم عن الجانب العربى والشعب الفلسطينى ، فلاهم يريدون للعرب أن يحاربوا ولاهم يريدون للفلسطينيين أن يمارسوا أى حرب شعبية أو استئناف نشاطهم الفدائى ، وقد أثبتت التطورات اللاحقة أن السوفييت مخطئون فى هذه التصورات ، حيث استعادت القوى العربية بالحرب الرابعة ومن خلالها وزنها الاستراتيجى ، والشعب الفلسطينى هو الآخر لم يفقد قط إحساسه بالهوية المشتركة .

ومن ناحية أخرى فقد كان لحرب يونيو ١٩٦٧ تأثير عميق على العلاقة بين

الحكومة السوفييتية واليهود السوفييت وإسرائيل ، بالإضافة إلى المشكلة المتصلة بها وهى مشكلة موقف السوفييت تجاه يهود العالم والرأى العام العالمى والأحزاب الشيوعية ، وهو ما يشكل أرضية لمناقشتنا ، فمن الثابت أنه لا يوجد أدنى شك فى أن اليهود السوفييت بأغلبيتهم قد تأثروا من نتائج هذه الحرب بمشاعر تختلف عن تلك المشاعر الرسمية التى كان زعماء الكرملين يكنونها للعرب .

ويقدم لنا أحد الباحثين الفقرات التالية التى تشهد على ذلك «حسنا إنهم لم يسمحوا لأنفسهم – أى الإسرائيليين – أن يقتلعهم العرب كما كانوا أمام هتلر ، إن هناك عدداً كبيراً ومتوافراً من الجنود اليهود الممتازين فى الجيش الأحمر . وكثير منهم وصلوا إلى درجة أبطال الاتحاد السوفييتى . . ومازال هناك ذلك الشعور السيئ . . وإذا حدث أن اتبع العرب خطوات هتلر وقاموا بذبح كل يهود إسرائيل فقد تنتشر العدوى ، وسوف نكون قد وصلنا إلى درجة جديدة من معاداة السامية» .

كذلك فقد غمر الرأى العام السوفييتى عموماً عطف تجاه إسرائيل عقب انتصارها عام ١٩٦٧ ، ونستدل على ذلك بما ذكرته إحدى الدراسات المحايدة من أنه «قد ظهر الآن لأول مرة أن اليهود قادرون على «الرفس» بشدة فى الوجه ، ومن ثم فقد ساد الشارع السوفييتى احترام معين تجاه الجنود اليهود ، وكما هو الحال فى روسيا ، حيث تُكِنُ دائماً احتراماً عظيماً للجنود الأكفاء والطيارين . . وهو ما أثبته الإسرائيليون ، وإذا كان هذا هو الاتجاه لدى الإنسان الشيوعى الذى يدعو إلى التذويب كحل لمشكلة اليهود فهل يتبقى هناك أى شك فى مشاعر باقى اليهود السوفييت» ؟

وبالإضافة إلى ذلك نجد أن تقارير الطلبة الأجانب فى روسيا ، والمراسلين

الغربيين ، والسياح فى الاتحاد السوفييتى ، والمطرودين السوفييت ، والسياح السوفييت فى الخارج . . تشير إلى تعاطف غير اليهود تعاطفاً كبيراً مع إسرائيل ، كما يبدون إعجابهم من نصرها العسكرى وتضليل الدبلوماسية السوفييتية للعرب » .

كما أدلى طالب أسيوى سبقت له الإقامة فى موسكو بحديث جاء فيه «إنه من الطبيعى أن بعض الطلبة اليهود كانوا يحتفلون سرًّا بنصر إسرائيل ، وكانوا مدركين أن اليهود لو خسروا الحرب فسوف تكون نهايتهم على يد العرب . وفى موسكو حدث ضغط على الشخصيات اليهودية كى تدين العدوان الإسرائيلى ، غير أن اليهود السوفييت رفضوا التوقيع لها .

وتدل الإحصائيات الرسمية السوفييتية على النسبة المرتفعة للطلبة والفنيين والإخصائيين والأكاديميين والعلميين اليهود فى الاتحاد السوفيتى ، وهى نسبة لها ثقلها بدون شك ، ففى عام ١٩٦٨ بلغ عدد الطلاب اليهود فى التعليم العالى السوفييتى ١١٠٠٠ طالب ، والفنيون المتخصصون من ذوى المؤهلات العالية . . ٣٢٧٨٠٠ ، كما بلغ عدد الأكاديميين العلميين ٥٨٩٥٢ ، كذلك فإن نسبة اليهود فى الحزب الشيوعى السوفييتى نسبة لها ثقلها . بالإضافة إلى أن أجهزة الإعلام السوفييتية من صحافة وإذاعة تضم الكثيرين منهم ، ولم يوجد أى دليل للقبض على أية شخصية سوفييتية يهودية مشهورة أو فصلها ، حتى بعد أن وصلت الدعاية السوفييتية الرسمية فى هجومها على إسرائيل حدًّا لا مثيل له ، واتهم السوفييت إسرائيل بأنها تحاول تسميم المواطنين السوفييت ، وأن إسرائيل تقف ضد الشيوعية ، كما صورت الدعاية السوفييتية الدين اليهودى بأنه دين رجعى ، وركزت أيضاً جهدها على النقاط السابقة انطلاقاً من إيمان السوفييت

بالعقيدة الماركسية اللينينية للمسألة اليهودوالحركة الصهيونية . ولكن يبدو أن هذه المسلمات النظرية قد غابت تماماً أثناء التطبيق بحيث تتغلب العوامل الاستراتيجية على المبادئ الأيديولوجية ، وهنا يحل التناقض الجوهرى فى المواقف ، وهو ما ينطبق تماماً على موقف السوفييت من القضية الفلسطينية وإسرائيل ، حيث تناسى السوفييت التحليل الماركسى اللينينى ، وأقروا بشرعية وجود دولة إسرائيل وحقها فى العيش فى أمن وسلام ضمن وجودها المستقل ، غير قابلة للإزالة أو التخلى عنها ، على حد ما يراه فريق من الباحثين الفلسطينيين أنفسهم .

على أن الحقيقة التى يجب إبرازها . . أن السوفييت قد أعطوا السلاح للعرب قبل عام ١٩٦٧ ، وفى أثناء القتال ، وبعد وقف إطلاق النار عام ١٩٦٧ . ولكننا نبادر فنقول إن نشاط السوفييت بهذا الخصوص كان محدوداً للغاية . وفى مجلس الأمن وأمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عاون السوفييت العرب ، لكن أثر هذا العون كان ضئيلا هو الآخر . ويستدل على ذلك بعدم استعداد السوفييت أبداً لتخطى حدود معينة ، وأنه لم يكن فى نيتهم قط أن يضحوا من أجل العرب بالسياسة التى درجوا عليها ، وهى سياسة التعايش السلمى مع الولايات المتحدة . وبالفعل انصرف الفريقان السوفييتى والأمريكى خلال لقاء جلاسبورو إلى إعداد مشروع قرار مشترك بين الطرفين . ومن ثم أخذ الزعماء السوفييت يحثون المتطرفين من القادة العرب على الالتزام بالاعتدال ، فبودجورنى وكوسجين وبريجنيف لم يملوا من إلقاء النصائح على الرئيسين : بومدين وعارف ، خلال زيارتهما لموسكو لمناشدتها العون .

لكن يبدو أن الزعماء السوفييت كانوا فى وادٍ والقادة العرب المتطرفون كانوا

فى وادٍ آخر . لأن الهزيمة التى حاقت بالعرب والأوضاع فى الشرق الأوسط آنئذ كانت تبدو مرضية تماماً فى نظر السوفييت ، حيث ازداد التيار العربى المعادى للغرب . ونجا النظام شبه الشيوعى فى سوريا من السقوط بسبب الحرب . بل أصبح من الممكن – إذا ساعدت الظروف – الإقدام على تغيير البناء الاجتماعى فى مصر – الحليف العنيد للسوفييت – وتحويلها إلى دولة اشتراكية خالية من الروابط العاطفية الدينية الإسلامية والمسيحية على السواء ، وصارت أعياد الثورة السوفييتية وذكرى الزعماء السوفييت مثل لينين يحتفل بها على مضض فى أوساط القوات المسلحة المصرية والتنظيم السياسى ، وبالرغم من ذلك فلم يكن السوفييت على استعداد لمواجهة المخاطر بتأييدهم للحلول العسكرية .

وفى حين تشددت السياسة الأمريكية ، فقد بدا السوفييت كأنهم يميلون نحو تأييد الأخذ بالحلول السلمية ، وتجلى ذلك فى الاقتراح المقدم إلى الأمم المتحدة ، والذى يقضى بسحب القوات الإسرائيلية خلف حدود قريبة من حدود ٥ يونيو . وذلك فى مقابل تنازل العرب عن حالة الحرب . غير أنه حدثت تطورات هامة على الجانب العربى ، حيث توالت الأحداث . فزادت الجروح عمقاً واستنزفت من ماء الوجه أكثر مما استنزفت من الدماء . فقد كانت النكسة أول مصدر من مصادر المحن .

وكانت أول وأخطر الأحداث التى اهتز لها الرأى العام العربى هو ما كشفت عنه الهزيمة من قيادة لاهية ، وخطط حمقاء ، واستعدادات صورية . وكانت أول مرة تنشر فيها أنباء تتناول ما كان يدور من تساؤلات وشائعات يوم ٤ سبتمبر ١٩٦٧ ، وربما ظل الرأى العام العربى مكمماً لولا أن بعض وكالات الأنباء العالمية تناولت الموضوع بصورة أصبح من اللازم معها توضيح الحقيقة التى أسفرت عن

محاكمات المسئولين عن التقصير الذى أدى إلى النكسة . والتحقيق مع الذين دبروا ورتبوا عملية محاولة الاستيلاء على القيادة العليا للقوات المسلحة ، وأخيراً التحقيق فى انحرافات جهاز المخابرات العامة عن مهمته الأصلية . وثارت مئات الأسئلة حول كيفية تردى الأمور إلى مثل هذه الدرجة من عدم تقدير المسئولية . مما أدى إلى التضحية بأرواح عشرات الألوف من العرب من الشهداء الأبرار . واستيلاء إسرائيل على أرض فلسطين وتسلطها على الشعب الفلسطينى الشقيق والعريق . بالإضافة إلى احتلالها لأجزاء من التراب المصرى والتراب السورى .

ومن الأحداث التى زادت الجروح عمقاً أيضاً على الجانب العربى . الهجوم على مطار بيروت فى ٢٨ ديسمبر ١٩٦٨ . وحادث مصنع ألبى زعبل فى فبراير ١٩٧٠ ، وحادث بحر البقر فى ٨ أبريل ١٩٧٠ . ثم أحداث أيلول الأسود فى الأردن فى خريف عام ١٩٧٠ . وأخيراً موت عبد الناصر الذى جاء رد فعله رهيباً قاسياً فى العالم العربى ، ثم جاء البحث عن قائد جديد وبطل . لكى يفجر الصراع على السلطة فى مصر حاداً ومدويا . حتى تم تقويم الحكم وتصفية مراكز القوى وما تبعه من إعادة المؤسسات الدستورية . وكان ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى شخصية الرئيس السادات نفسه ، وإصراره الموضوعى على تحقيق الهدف المنشود ، بالرغم من انهماكه فى معركة رهيبة مع السوفييت وخبرائهم فى مصر لتحرير الإرادة المصرية . لكن السوفييت غاب عنهم التفسير المصرى لإعفاء خبرائهم ، حيث جاء هذا القرار بمثابة الشعرة التى قصمت ظهر البعير فى العلاقات السوفييتية المصرية . خاصة أنه قد سبق أن أدين معظم أصدقاء السوفييت فى مصر .

ويقال إن الرئيس السادات لو أحسن معاملة السوفييت لكانوا قد خلقوا من

مصر قوة عسكرية قادرة على تحرير فلسطين والأرض العربية . لكن السادات قد نفى فى مناسبات عديدة مثل هذه المقولات . وللتدليل على رأيه فقد استعرض الحقائق التالية : ذكر الرئيس السادات أنه فى عام ١٩٧٢ كان هو الحليف الوحيد للسوفييت فى مصر ، بدليل أنه خطب فى مجلس الشعب آنئذ موجهاً اللوم للرسميين فى مصر ، حيث ذكر لهم أن الذى يريد أن يتعاون معه ومع السوفييت فأهلا وسهلا . . والذى لا يرغب فى هذا التعاون فلا حاجة به للبقاء فى الحكم . ويضيف الرئيس السادات أن ذلك كان موقفه بالرغم من أن السوفييت قد خذلوه فى عام الحسم – أى عام ١٩٧١ – عندما رفضوا إعطاء مصر السلاح . وقوله : «لكننا حاربنا بسلاح السوفييت ، والذى كسب الحرب هو الذى استخدم السلاح نفسه ، لأننى كنت عشر خطوات وراء إسرائيل وثلاث خطوات وراء سوريا . إذ إنه بعد سحب الخبراء السوفييت من مصر وصلت إلى سوريا أسلحة روسية كثيفة ومتقدمة تكنولوجيا . ولقد زرت الروس أربع مرات وخذلونا فى عام الحسم ومع ذلك كنت أدافع عنهم» . .

ثم جاء إعلان قيام اتحاد الجمهوريات العربية . وكعادة السوفييت من تخوفهم من أية محاولات للوحدة بين العرب . فقد عارضوها لاعتقادهم بأنها تقف حجر عثرة أمام نمو الحركة الشيوعية التى تجد لها أرضاً خصبة فى ظل التفتت العربى . غير أن هناك آراء تقول إن معارضة السوفييت لهذا الاتحاد جاءت من وراء ستار . بعد أن بلغ الصراع العربى على السلطة فى مصر أشده .

لكن الرئيس السادات اعتبر ذلك أمراً داخليًّا بحتاً ، حيث لم يسمح قط بالصراع الداخلى . وذكر السادات للسوفييت أنهم إنما يتعاملون مع الحكومة المصرية ومعه شخصيًّا . وليس مع أشخاص آخرين . ومن هنا فقد أبلغ

السادات السفير السوفييتى فى القاهرة فى إحدى مقابلاته – حول قراره تصفية على صبرى من القيادة – قائلا : «أريد أن تبلغ موسكو ، وأرجو ألا تعتبر هذا إجراء ضدكم ، فهو أمر محلى ولا يخصكم» .

وقد فوجئ الرئيس السادات بالرئيس بودجورنى يصل إلى القاهرة ويطلب عقد معاهدة . كان السادات – وعبد الناصر من قبله – يلحان على السوفييت فى عقدها . وكان السوفييت يرفضون . حتى إن عبد الناصر فى عام وفاته ذكر لهم فى الكرملين : «إذا كنتم خايفين من المعاهدة . . مستعدين نعملها حلف» . . لكن السوفييت رفضوا . وأصر بودجورنى هذه المرة على عقد المعاهدة مع مصر . وذكر أنه حضر برجاء مصحوب من المكتب السياسى فى موسكو الذى يريد هذه المعاهدة . وهنا استدعى السادات وزير خارجيته وكلفه بإعداد المعاهدة ، وكان حريصاً على استمرار العلاقة مع الاتحاد السوفيتى بالرغم من أن أحداً فى مصر لم يكن يريد هذه الاتفاقية . لكن السادات أراد أن يطمئن السوفييت . وبالرغم من ذلك فقد تخلى السوفييت عن مصر فى وقت هى أحوج ما تكون فيه إلى مزيد من السلاح ، فإذا أضفنا إلى ذلك سياسة الوفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية التى كانت تتطلب من السوفييت أن يوفروا مناخاً صالحاً لاستمرار وازدهار هذه السياسة . فإن هذه العوامل مجتمعة جعلت العلاقات السوفييتية المصرية تعانى من حالة فتور وانكماش واضحة بالرغم من توقيع معاهدة الصداقة بين الاتحاد السوفيتى ومصر فى أعقاب ثورة ١٥ مايو التصحيحية .

وهكذا اتضح للرئيس السادات فى هذه الفترة من خلال زياراته المتتابعة للاتحاد السوفيتى طلباً للسلاح أن السوفييت لن يوفوا بوعودهم . وأن ما يهمهم ليس تحرير الأرض المحتلة أو استرداد حقوق الشعب الفلسطينى . إن

ما يهم السوفييت بالدرجة الأولى استمرار وجودهم فى المنطقة . وبالرغم من معاناة مصر الشديدة فى علاقاتها مع السوفييت فإن السادات لم يطعنهم من الظهر . ولم يجر أى اتصال بالأمريكيين قبل طرد الخبراء السوفييت . كذلك فإن السادات لم يغلق الباب أمام تسوية سلمية مع إسرائيل . ولكنه وعى تماماً أن هذه التسوية السلمية مستحيلة مالم تدرك إسرائيل أنه قد توافرت لمصر القوة التى يمكن باستخدامها الوصول للهدف . كما تيقن للرجل أن إزالة آثار عدوان يونيو ١٩٦٧ بالتالى لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال عمل مسلح يلعب الدور الرئيسى فيه جيش مصر بتسليحه وتدريبه وتخطيط قيادته السياسية .

غير أن تحقيق ذلك قد مر بمبادرات ومشاريع ومنعطفات تاريخية ، فقد بدت المواجهة العربية الإسرائيلية فى عام ١٩٧٠ محكومة بقيود . أهمها أن الدعم الذى تحصل عليه دول المواجهة هو أقصى ما يمكن أن تقدمه الدول العربية المنتجة للبترول . وبالنسبة لمصر فقد تحملت عبء القضية الفلسطينية لحماً ودماً وعظماً (٦٠٪ من ميزانيتها عام ١٩٦٧ ، بالإضافة إلى أكثر من ٢٠ ألف شهيد فى المعركة) فى حين أن دول البترول العربية لم تقدم سوى ما مجموعه ١٤٤ مليون جنيه إسترلينى ، استدانتها مصر قروضاً حتى منتصف السبعينات من دول البترول العربية ، وهذا المبلغ لا يرقى حتى إلى قيمة الفوائد المستحقة على مصر لدول العالم المختلفة . وبالرغم من ذلك فقد استمرت مصر على خطها السياسى الثابت حتى الآن ، تحرس بدماء أبنائها وبقوت يومهم حياة الأمة العربية .

أما الأردن فقد جاءت أحداثه الدامية فى صيف وخريف ١٩٧٠ بشأن إبادة الفلسطينيين لتضيف صفحة سوداء فى تاريخ قضية فلسطين . حيث أنفقت الأموال العربية لقتل الأرواح العربية ، ومات فيها من العرب بيد العرب

أكثر ممن ماتوا بيد الإسرائيليين بسبب كارثة ١٩٦٧ . واستعملت فيها من الأسلحة والذخائر ماوصفه المراقبون بأنه كان كفيلا بهدم مدن بأكملها . وقد طويت هذه الأحداث الأليمة «بقصم الظهر» لعناصر المقاومة الفلسطينية التى كانت متمركزة بالأردن . وسوف تفعل سوريا نفس الشيء بعد ذلك بسنوات . حيث أجهزت القوات السورية على عشرات الألوف من أبناء الشعب الفلسطينى الشقيق المقيمين فى المخيمات بلبنان ، وهو مالم يعرف تاريخ العرب الحديث شيئاً مثيلا له من قبل .

وعلى صعيد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فقد بدا أن الدولتين العظميين غير راغبتين فى حدوث مواجهة بينهما بسبب الإسرائيليين أو العرب على السواء . حيث بات واضحاً لهما أن الخطر فى منطقة الشرق الأوسط قد يعرضهما لمواجهة إحداهما الأخرى ، وهو ما جعلها تتمسكان معاً بالوجود الإسرائيلى بل حمايته ، أى أن المهم أن يسود السلام بين السوفييت والأمريكيين بالدرجة الأولى . وهكذا انتهت الحرب الباردة التى سادت العلاقة بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى لأكثر من ربع قرن . وفى ضوء تخلخل عملية الاستقطاب الدولى انتهجت كثير من الدول المتوسطة والصغيرة طرقاً سياسية واقتصادية تتعارض أحياناً مع الطرق التى تسلكها إحدى الدولتين الرئيستين ، بل إن مصر قد اتخذت خطوة أجرأ من ذلك حينما أقامت بحرب أكتوبر ١٩٧٣ التى كانت تتعارض أيضاً مع مسلك الدولتين الرئيستين .

وقد تأكد بذلك الانحراف بين السياسة الأمريكية والسياسة الإسرائيلية . وكان أول انحراف محدد فى السياسة الأمريكية عن التطابق مع السياسة الإسرائيلية حينما قدمت الولايات المتحدة فى يونيو ١٩٧٠ مقترحاتها التى عرفت باسم مبادرة

روجرز . نسبة إلى وزير خارجيتها آنئذ ويليام روجرز . وقد اختلفت ردود فعل مبادرة روجرز ، فبالنسبة لمصر مثلت هذه المبادرة اختباراً لنوايا الولايات المتحدة فى الأزمة ، أما القادة العرب ، فكما هو شأنهم دائماً ، قد انقسموا على أنفسهم .

وعموماً فإن مبادرة روجرز تستحق منا وقفة للتفسير والتعليل . حيث إن وقف إطلاق النار قد استمر منذ ٨ أغسطس ١٩٧٠ حتى أكتوبر ١٩٧٣ .

كان ويليام روجرز قد تقدم فى ٩ ديسمبر ١٩٦٩ بمجموعة من الاقتراحات ، تركت تفاصيل الوصول إلى تسوية بشأن الأزمة لمباحثات تجرى بين الأطراف المعنية . وأوضحت هذه المبادرة رغبة الولايات المتحدة فى وقف إطلاق النار بين الأطراف المتنازعة وإجراء تعديلات طفيفة فى حدود ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ بين إسرائيل وجيرانها من الدول العربية . ويقال إن هذه المبادرة قد سبقتها جهود ربما كانت سرية حين قدمت الولايات المتحدة فى عام ١٩٦٨ عرضاً إلى مصر للحصول على سيناء . غير أن هذا الاقتراح رفض من قبل وزير الخارجية آن ذاك محمود رياض .

وقد تلخصت مبادرة روجرز فى النقاط التالية : إن الإطار الوحيد لمفاوضات التسوية هو أن يكون منسجماً تماماً مع محتوى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، الذى وازن بعناية بين الاحتياجات لسلام عادل ودائم ، وبيّن أن استمرار حالة اللاسلم واللاحرب لا تخدم مصلحة أية دولة فى الشرق الأوسط أو خارج الشرق الأوسط . وأنه يلزم وجود تعهدات ملزمة لكل من إسرائيل والدول العربية الأخرى لأجل إيجاد السلام ، وعليهم أن يأخذوا على عاتقهم الالتزام بمنع الأعمال العدائية المنظمة من أوطانهم بشكل خاص . لكن إسرائيل

أعلنت أنها لن تعود أبداً إلى حدود ما قبل حرب يونيو ١٩٦٧ . وأن قواتها لن تنسحب من خطوط وقف إطلاق النار إلا بعد توقيع معاهدة سلام مع الدول العربية .

وعلى أية حال فقد بدأت مرحلة وقف إطلاق النار على جهة قناة السويس منذ ٨ أغسطس ١٩٧٠ لمدة ٩٠ يوماً ، وقامت الأطراف المعنية بمباحثات غير مباشرة عن طريق الدكتور يارنج الذى قام بتوجيه الدعوة لكل فريق . وقابل مندوب إسرائيل الدائم الذى نقل إليه فى ٨ سبتمبر قرار حكومته بعدم الاشتراك فى المباحثات مادامت اتفاقية وقف إطلاق النار لم تراع تماماً . وهكذا انتهت هذه الجولة من المباحثات ، وكان روجرز قد أرسل قبل ذلك بشهور رسالة إلى وزير الخارجية المصرى محمود رياض . جاء فيها :

«إننى أقر بأن الوضع قد بلغ نقطة خطيرة ، وأعتقد أنه من مصلحتنا المشتركة أن تحفظ الولايات المتحدة وتنمى علاقات صداقة مع كل شعوب ودول المنطقة ، وتأمل فى توضيح أن ذلك يمكن تحقيقه ، ونحن على استعداد للقيام بدورنا فيه (. . .) ولقد قدمنا مقترحات جديدة وعملية من أجل ذلك ، وهى أن توافق كل من مصر وإسرائيل على العودة إلى وقف إطلاق النار ولو لفترة محدودة . وتوافق الأطراف المعنية على التصريح الذى يهدف إلى التوصل إلى اتفاق حول إقامة السلام العادل والدائم الذى يستند إلى الإقرار من جانب الأطراف بسيادة وسلامة الأراضى والاستقلال السياسى ، وأن يتم الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى التى احتلت خلال نزاع عام ١٩٦٧ . وذلك طبقاً لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢» .

وقد أعلن الرئيس عبد الناصر والملك حسين قبولها لمبادرة روجرز . غير أن

إسرائيل وضعت العراقيل – كعادتها – فى سبيل تنفيذ ما جاء بمبادرة روجرز هذه .

وإذا شئنا ترجمة مبادرة روجرز الأولى هذه على صعيد المواجهة العربية الإسرائيلية . . فإنها كانت تعنى مجرد تنظيم لعملية وقف إطلاق النار بين الطرفين لمدد محددة . وقد استمر ذلك بالفعل إلى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، ولم تكن حالة الهدوء هذه تعنى نوعاً من أنواع السلام . لكنها كانت حالة ثبات فى نظر صانعى القرار الإسرائيليين . وهو مالم تقبله مصر فيما بعد .

على أنه تنبغى الإشارة إلى أن موافقة مصر على هذه المبادرة قد سبقتها جهود من جانب عبد الناصر فى شكل نداءات وتصريحات علنية للولايات المتحدة . وأيضاً قامت إسرائيل بنفس الشيء أى أن الطرفين : المصرى والإسرائيلى كانت لديهما النية فى اتخاذ خطوة دبلوماسية جديدة ، ويستدل على ذلك من التصريحات العلنية الآتية لكلا الطرفين المصرى والإسرائيلى :

١ – النداء الذى وجهه الرئيس عبد الناصر إلى الرئيس الأمريكى نيكسون فى أول مايو ١٩٧٠ .

٢ – المقابلة التى أجرتها شبكة التليفزيون الثقافية الأمريكية مع عبد الناصر والتى قال فيها صراحة : إنه يميل إلى قبول وقف إطلاق النار .

٣ – التصريح الذى أفضت به رئيسة وزراء إسرائيل آنئذ جولدا مائير ، والذى قالت فيه : إن إسرائيل على استعداد لقبول قرار مجلس الأمن .

٤ – التصريح الذى أفضى به أبا إيبان والذى قال فيه : إن العرب سيفاجئون من التنازلات الإسرائيلية فى اللحظة التى تبدأ فيها مباحثات السلام .

غير أن الإسرائيليين من ناحية أخرى كانوا يأملون فى أن الجانب المصرى

سيرفض المبادرة الأمريكية الجديدة نظرا للهيمنة السوفييتية على مصر آن ذاك. لكن عبد الناصر وافق على المبادرة وتمسك المصريون بفرصة وقف إطلاق النار، ولم يمنع ذلك من تحريك بطاريات الصواريخ المصرية وبدأت حرب الأعصاب. وكان من نتيجة ذلك انسحاب إسرائيل من مهمة يارنج إلى أن يذعن المصريون ويسحبوا صواريخهم من القناة. وقد تبين أن موضوع إسرائيل الحقيقي ليس سحب الصواريخ، ولكن الضغط على الولايات المتحدة بطلب ضمانات ومساعدات اقتصادية وعسكرية، ثم تغير الموقف الإسرائيلي نتيجة التأكيد الأمريكي بأن المساعدات يمكن أن تأتي في أي الحالات. وهكذا في ٢٨ ديسمبر ١٩٧٠ قررت إسرائيل استئناف المشاركة في محادثات يارنج، لكنها عادت فرفضت المبادرة. وهنا أخذت الولايات المتحدة في الضغط على إسرائيل. وصرح الرئيس نيكسون قائلا: «أعتقد أن بوسع إسرائيل الموافقة على وقف إطلاق النار الذي اقترحته الولايات المتحدة بدون تخوف، وبدون أن تعرض أمنها للخطر» وأضاف: «إنني أستطيع أن أتعهد لإسرائيل بأنه بإمكانها قبول وقف إطلاق النار».

وعموماً فإن الصفوة الإسرائيلية الحاكمة وجدت أن مبادرة روجرز لا تتلاءم مع السياسة الإسرائيلية. واستمرت هذه الصفوة الحاكمة في وضع المجتمع الإسرائيلي في حالة توتر دائمة، وفي ظروف وشروط تدفعه دفعاً إلى الحرب، وجعل المجتمع الإسرائيلي مجتمعاً إسبارطيًّا متحفزاً يقدم ضرورات الأمن على كل ماعداها، ويعيش في قلعة عسكرية وسط منطقة معادية. واستطاع مخططو السياسة الأمنية بالتالي أن يتبنوا إستراتيجية الضغط على السوفييت الذين أذعنوا تماماً لمطلب إسرائيل والولايات المتحدة في مسألة هجرة

اليهود السوفييت إلى إسرائيل ، واستخدمت إسرائيل نفوذها فى جعل واشنطن تربط الاتفاقات الاقتصادية الأمريكية السوفييتية بالموقف السياسى السوفييتى من النزاع ، والسوفييت هم الآخرون قد اقتنعوا أو بالأحرى توهموا أن مرور الزمن على الاحتلال دون إطلاق نار يعتبر تسوية جزئية هى فى الواقع تسوية عملية ، وأن إسكان إسرائيل بمهاجرين سوفييت جدد سوف يضمن لها مساحة إستراتيجية تخدم أمن إسرائيل أكثر من أى سلاح أو ضمانات دولية .

وعلى الصعيد الإسرائيلى أيضاً سادت فى هذه الفترة مقولات من نوع أن شرم الشيخ بدون سلام أفضل من السلام بدون شرم الشيخ . وأن باستطاعة إسرائيل أن تدافع عن نفسها بنفسها ضد قوى العالم العربى مجتمعة ولأية فترة ممكنة – خمس أو عشرين أو خمسين سنة – «مادمنا لا نحرم من المعدات اللازمة لدفاعنا» وأن الثغرة فى المستوى العلمى والتكنولوجى بين إسرائيل والدول العربية كبيرة جدًّا وآخذة فى الاتساع ، وأن العرب متأخرون عن إسرائيل فى العلوم والتكنولوجيا مائة سنة ، وأن الخروج من مشكلة الشعب الفلسطينى لا تحل بالاعتراف به كشعب له حقوقه ، بل تحل بتجاهله .

غير أن هذه الأفكار لقيت معارضة من داخل إسرائيل ذاتها ، وكانت حجج المعارضين ترى أن هذه السياسة تستفز المسلمين الراغبين فى تحرير القدس ، كما تستفز الرأى العام العالمى كله . فضلا عن أن الولايات المتحدة والدول الصناعية بصورة عامة حساسة إزاء الطاقة التى تتطور بسرعة ، وأن الضغط على العرب والاستهانة بمشاعرهم سيدفعانهم إلى الوحدة لاسترداد الكرامة والأرض ، وأن ضم عرب المناطق المحتلة سيضيف إلى دولة إسرائيل

شعباً معاديا يتزايد بسرعة كبيرة ، ويشكل لغماً قابلاً للانفجار فى كل لحظة ، وأن تجاهل الشعب الفلسطينى لا ينفى وجوده بل يحفزه على مواصلة النضال والتمسك بهويته . وأن الدعم الأمريكى المطلق لا يمكن أن يستمر إذا ما تعارضت المصالح الأمريكية بشكل جذرى مع مصالح إسرائيل ، وأن الزمن يلعب لصالح العرب كما يلعب لصالح إسرائيل ، خاصة أن العرب مقدمون على امتلاك ثروة كبيرة يمكنهم تسخيرها للتقدم بشكل يحرم إسرائيل أهم عوامل تفوقها العسكرى على العرب ، وأن الاحتفاظ بالمناطق والحدود الآمنة لا يضمن الأمن فى ظروف الحرب الحديثة والأسلحة المتطورة .

ومع ذلك فإن الصفوة السياسية الحاكمة تابعت خططها متجاهلة تماماً الإنصات لمسار التطورات المحلية والعالمية . حتى إن الجنرال الفرنسى «أندريه بوفر» عبر عن ذلك بقوله : «عانت إسرائيل من داء عانينا منه جميعاً غداة الحرب العالمية الثانية . وهو داء المنتصرين الذين يظنون أن الأقدار فى صفهم وأن كل شىء أصبح ميسراً لهم» .

وكان من شأن هذا الموقف الإسرائيلى المتصلب أن أصبحت إسرائيل معزولة تماماً أمام الشرعية الدولية والرأى العام العالمى الذى ساده الشعور بأن العرب على حق . لكن الأزمة كانت راكدة فى بحر السياسة الدولية ، وكانت المشكلة الكبرى هى كيف يمكن تحريكها ؟ .

وقامت مصر بالعبء الأكبر فى تحريك الأزمة برغم الاختلافات التى كانت سائدة بين القادة العرب ، ففى ٢٣ يوليو ١٩٧٣ قبيل الحرب أكد الرئيس السادات على ضرورة اتباع جمع الشمل العربى بقوله «إن موقفنا من وحدة

العمل العربى هو أننا نرحب بكل تعاون وتنسيق بين القوى العربية على امتداد مناطقها الجغرافية ، وعلى اختلاف أنظمتها الاجتماعية ، وفى لحظات المصير العربى ينبغى أن نرتفع فوق كل الصراعات وفوق كل الخلافات ، لنذكر الخطر الواحد الذى يتهددنا جميعاً بغير تفرقة أو تمييز» .

كذلك فقد استمر الرئيس السادات على خطه السياسى الثابت حتى فى جهوده الدائبة من أجل إحلال السلام فى المنطقة بعد ذلك بسنوات ، من أن المشكلة الفلسطينية هى محور الصراع العربى الإسرائيلى ، وقبيل حرب أكتوبر ١٩٧٣ قال الرئيس السادات إذا كانت مشكلة فلسطين قد أصبحت فى الضمير العربى جزءًا لا يتجزأ من نضال أى شعب من شعوب أمتنا فإنها بالنسبة للشعب المصرى جزء لا يتجزأ من حياته نفسها» .

وعلى صعيد حقوق شعب فلسطين فإن الرئيس السادات قد وضع فى اعتباره أن الثورة الفلسطينية – بالرغم مما حققته سياسيًّا من إبراز الكيان الفلسطينى من جديد ، وبرغم ما قامت به من أعمال بطولية خارقة فى الأرض المحتلة – لن تستطيع وحدها مواجهة إسرائيل . بمفردها وبقوتها الراهنة ، وحتى بتوجيه السوفييت لها – مع أن السوفييت لا يشجعون بالمرة العمل الفدائى الفلسطينى .

ويرى السادات أن تأييد ومساندة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى الشقيق لها جانبان : الحق التاريخى للشعب الفلسطينى ، والحقوق السياسية الراهنة له . وأن حدود مسئوليته ومسئولية جيله تقف عند حد تجسيد هذه الحقوق السياسية الراهنة .

بهذه الرؤى للرئيس السادات عشية حرب أكتوبر ١٩٧٣ صارت حركة التحرير الفلسطينية حركة تحرير منظمة لها استراتيجيتها التى تنفذها بكفاءة ، وذلك من خلال مراحل تكتيكية متتابعة . ومن هنا فسوف نرى أن الثورة الفلسطينية قد احتلت مكانها فى حرب أكتوبر نداً وشريكاً . وسوف تضيف للمعركة وزناً ودعماً مؤثرين .